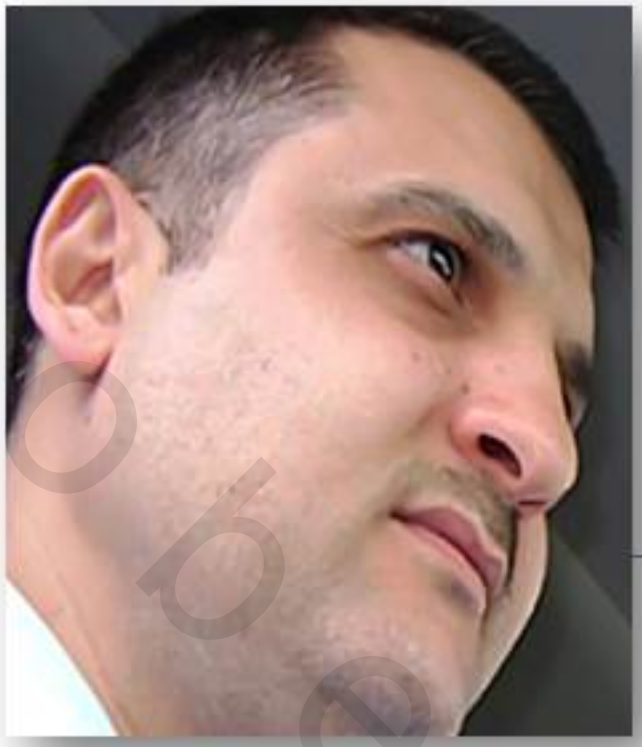

الطّريقُ الآمنة إلى اللّه

قراءة في النص الفضي

الفائز بالمركز الثاني في مسابقة الكيگو غير المباشر

فادي عوض

شاعر وناقد من سوريا

طَريقُ المَعْبَدِ
أَعُدُّ الحلازينَ
المُهَشَّمة

Sami Hamrouni

هذا الهايكو المثقلُ بالرموزِ و المعاني العميقةِ كما هو حالُ الإنسانيةِ التي أثقلتْ كاهلَها حجارةُ المعبدِ و ليسَ ساكنُه.
لقد أدهشتني حقاً قدرةُ الشّاعرِ على توظيفِ الكلماتِ لتقومَ بأدوارِها بدقةٍ متناهيةٍ و كأنّه مخرجٌ محترفٌ يقودُ ممثلينَ بارعين .
لقد خدمتْ كلٌّ كلمةٍ بإخلاصٍ لتبني هيكلاً فريداً لقصيدةِ هايكو خالدةٍ دون أنْ ينتهي دورُها عنَد هذا، فلقدْ ألقتْ على الهيكلِ عباءاتٍ من المعاني التي ربّما نَحْنُ بحاجةٍ أكثر لأنْ نتذكرَها في هذه الأيام .

أعمدةُ هذا الهايكو هي كلماتُه دون زيادةٍ أو نقصان .
و هي (طريقُ و معبدُ و أَعُدُّ و الحلازينُ و المُهَمَشَة).
لقد وجدتُ أنّ الطريقةَ الأمثلَ للإحاطةِ بكلِّ معاني الكلماتِ و توظيفاتِها أنْ أَفرِدُها في الشّرح والتحليل .

طَريقُ المَعْبَدِ كما ورد في هذا الهايكو ، هو طريقٌ واحدٌ ، ليسَ اثنين أو ثلاثةَ أو أكثرْ، طريقٌ واحدٌ و ليسَ مقبولاً من الإنسانِ إيمانَه إلا إذا سلكَ هذا الطّريقِ حتى لو اضطر إلى سحقِ مَنْ يعترضُهُ في الطريقِ نَفْسُهُ أو مَنْ كانتْ لَهُ طريقتُه الخاصةُ و مكتفٍ بحالِهِ عدا ذلك سيجدُ نَفْسَهُ عرضةً لمنْ سيحاولُ سحقَهُ مادياً او معنوياً . جعلَ الشّاعرُ الطّريقَ واحداً في مقدمةٍ مناسبةٍ تماماً لما سيتبَعُهُ من معاني تسيرُ برشاقةٍ في سياقِ المعنى . هذه الكلمةُ الفاتحةُ تثيرُ هذا التساؤلَ القديمَ و الكبيرَ ، هل يمكنُ الوصولُ إلى ذاتِ المعبودِ بطرقٍ عديدة ؟
أم أنَّ الطّريقَ واحدةٌ و ما عداها هو طَريقُ للهلاك ؟
سنرى الإجابةَ في ما سيأتي بعد ذَلِكَ في هذا الهايكو الفريدِ .

المعبدُ، طالما استخدمها الكتّابُ و الشُّعراءُ العربِ لتشيرَ إلى دورِ العبادةِ لأيّةِ طائفةٍ دونَ تمييزْ . و هذا هو تعريفُ للدقةِ و الإتقانِ في اختيار هذه الكلمة هنا . لأنَّ المشهدَ يخصُّ كلَّ دينٍ و كلَّ طائفةٍ على السّواءِ فلا فرقَ في سلوكياتِها أبداً بالحقيقةِ و لو اختلفت ظاهرياً . و طالما وردتْ كلمةُ المَعْبَدِ مقترنةً بالحجارةِ فقطْ أي الهيكلُ و البناءُ و ليسَ ما بداخلِهِ المعنوي و كأنَّ الشّاعرَ هنا لا يقصدُ الإيمانَ بالخالقِ أو الإيمانَ الغيبيِّ و إنما يقصدُ الدّينَ و ليسَ الإيمان ، الدّينُ أيُّ دينٍ عندما تتحولُ فِيهِ الأهميةُ للحجر و ليسَ للإنسان و حيثُ تَكُونُ فيه الأهميةُ لطقوسِ العبادةِ و ليسَ للمعبودِ.

هناكَ فرقٌ بين الإيمانِ و الدّينِ لأنَّ الإيمانَ هو في قلبِ الإنسانِ أما الدّينُ فهو في الطقوسِ و حجارةِ المَعْبَدِ . الإيمانُ عندما يخرجُ من القلبِ يخرجُ الإيمانُ خارجَ المَعْبَدِ و عندها يتحولُ إلى قوةٍ تسحقُ كلَّ من يقفُ في طريقِ من يرى أنه يعرفُ الطّريقَ الأوحدَ.

هذا المعنى يُمسكُ بيدنا نحو كلمةِ أَعُدُّ ، فعلٌ حاضرٌ مستمرٌ خدمَ بناءَ الهايكو في المشهديةِ المستمرةِ و كذلك معنى الاستمرارية فالعدُّ هنا يمكن أنْ يكونَ لا نهائياً طالما الطريقُ واحدةٌ نحوَ حجارةِ المعبد و طالما أنَّ تعدد الطُّرقِ مرفوض . فكمْ من حروبٍ مقدسةٍ قامتْ و كم راحَ ضحيتُها من الناسِ مِنذُ بدءِ التّدينِ و تسيسِ الدّينِ إلى الآن .. و هنا يأتي دور الحلازين في هذا الهايكو، هذه الكائناتُ الهشةُ التي تنشطُ في أيّ وقتٍ تَكُونُ الرّطوبةُ منتظمةٌ بما فيه الكفاية. و عدا ذَلِكَ يلتزمُ الحلزونُ قوقعتَه و يعملُ على إغلاقِها بمادةٍ مخاطيةٍ تساعدُ على حمايتِهِ ويدخلُ بذلكَ في مرحلةِ تُسمى بالسّباتِ الصّيفي في حالةِ ارتفاع درجاتِ الحرارةِ وبالسّباتِ الشّتوي إذا انخفضت.

لذلك أكثرُ ما نراها في أواخرِ الخريفِ و أوّائلِ الشّتاء حيثُ يتوفرُ الشّرطان الرّطوبةُ و الحرارةُ .. هذه الحلازينُ في سياقِ الهايكو هي الإنسانُ المتمترسُ و المتقوقعُ في قوقعةِ أيديولوجيتِه أو طائفتِه . و كلّ تمترسٍ إيديولوجي يحتاجُ لشروطٍ مكانيةٍ و زمانيةٍ لنشاطهِ، و لن يصلحَ بأيةِ حالٍ لأيّ زمانٍ و مكانٍ . إنّ النّهايةَ المأساويةَ تنتظرهُ على طريقِ المَعْبَدِ الذي سبق و شرحتُ دلالاتِه . النّهايةُ التي تنتهي بالسّحقِ تحتَ أقدامِ مَنْ يسيرُ على نفسِ المنوالِ و الطّريق .

إنّ الحلازينَ هي الإنسانُ المؤدلجُ الذي يرفضُ الآخرَ و نهايتُه المأساويةُ قد تشملُ أناساً آخرينَ لا علاقةَ لهم بهكذا صراعاتٍ إيديولوجيةٍ إلا لكونِهم أفراداً في جماعةٍ لها ذاتُ القوقعة . إنّ العدَّ مستمرٌ لهذه الحلازينَ المهشّمة .

بعدَ كلّ هذه المعاني نصلُ إلى الكلمةِ الأخيرةِ كلمةُ (مهشّمة) هي الكلمةُ التي ربما منحتْ النّصَ الكيرجي المطلوبَ أو المِفْصَلَ بين المحسوسِ و المعنوي.

و ذلكَ عندما حددتْ بدقةٍ رسالةَ هذا الهايكو الرفيعِ فهي تدلُ على المصيرِ المحتومِ لمن كان على طريقِ المعبد الحجري ، إنه التهشيمُ وأما الحلازين التي هي على حوافِهِ و على المروج المحيطة بالطريقِ نتوقع أنها ستنجو من السّحق تحتَ أقدام الذاهبين للمعبدِ و إن كانت لها نهاياتها الخاصة لكنّها حتماً ليستْ التهشيمَ تحتَ الأقدام .

ملاحظة أخيرة : هناك إسقاطاتٌ إنسانيةٌ متعددة ممكنة يضيئها هذا الهايكو إذا استعرنا رمزيةَ المعبدِ للمحبوب أو المعشوقِ و ضحايا الحبِّ من الحلازين المهشّمة كثيرة جداً على الطريق الى قلبِ المحبوب . لكني وجدتُ أنّ الإسقاطَ الذي شرحتُه بالتّفصيلِ سابقاً هو الأثمنُ و هو الأجدرُ بالملاحظة !

هذا الهايكو مكتملُ العناصرِ فنياً و التزم بشرطِ الكيكو الخفي، فالحلزونُ هو الكلمة المفتاح لكيكو غير مباشر يحتاجُ للتنقيبِ قليلاً حتى نعثرُ عليه . إلتزمَ بصيغةِ المشهديةِ الحاضرة المستمرة و أكثرَ من ذلك كانت هذه المشهديةُ المستمرةُ أكبرُ وسيلةٍ لصياغةِ المعنى العام فلم يكن في هذا الهايكو حشوٌ أبداً. و بسببِ تعدد أوجه الخدمات التي قدمتها كل كلمة بدقةٍ متناهيةٍ و جدتُ أنّه خالٍ من الترادفِ و بمعنى آخرَ دقيقٌ جداً في اختيار الكلماتِ كما يفعلُ صانعُ الموزاييكِ الماهرِ عندما يختارُ قطعَ الصّدفِ ليلصقَها في حُفَرِ الخشبِ بعمليةِ الحَفْرِ و التّنزيلِ .

لم يكنْ هذا الهايكو قصيراً جداً و لا طويلاً جداً . لمْ يكنْ مغرقاً بالذاتيةِ و التجربةِ الشخصيةِ بل كان إنسانياً بامتياز عندما تحدثَ عن الإيمانِ و الدّينِ و الطُّرقِ و التقوقعِ و المصير . حملَ التضادَ بشكلٍ خفي فالذاهبونَ على الطريقِ يمشونَ و يسحقونَ قصداً أو بِغَيْرِ قصدٍ الزاحفينَ ، التناظُرُ بين السّيرِ و الزّحفِ أضافَ معنىً فوقَ معنى . ليسَ غامضاً و ليسَ فاضحاً فهذا الهايكو يحتاجُ القليلَ من التّأني لإسقاطِ المعنوي على المحسوسِ و لكنْ لا يتعذرُ ذلك ابداً . لمْ أجدْ في هذا الهايكو الخالدِ إلا صناعةَ الحَفْرِ على الظّلالِ و لصقِ قطعَ النّورِ عليها.

هذا الهايكو نحتاجُهُ في هذهِ الأيّام كما احتاجته عصورٌ سابقةٌ اكتملت فيها الشّروطُ الزّمانيةُ و المكانيةُ لنشاطِ الفِكْرِ الإقصائي بأقصى أشكاله دينيةٍ غيبيةٍ أو حتى ماديةٍ علميةٍ . هذا الهايكو في تقريرهِ المصيرِ المؤلمِ هو تحذيرٌ مدعومٌ بالبرهانِ أنّ احتكار الحقيقةَ لَنْ تصلَ بصاحبِها إلى قلبِ الإيمانِ و إنّما إلى حجارةٍ و مصيرُه المؤلمُ و المحتومُ ينتظرُهُ لا محالة.

هي دعوةٌ لإعادةِ النّظرِ لطريقتِنا للإيمانِ بِالخالقِ و للإيمانِ عموماً و كما يَقُولُ جلالُ الدّين الرّومي :

""إنّ الطريقةَ التي نرى بها اللهَ ليستْ إلا الطريقةَ التي نرى بها أنفسَنا "«

هذا الهايكو أتقنَ ما أرادَ قولَهُ أنّ هذه الطّريقُ الآمنة إلى الله ليستْ طريقاً واحدة . هذه الطريقُ لا تمرُّ بحجارةِ المَعْبَدِ بَلْ تمرُّ بقلبِ الإنسانِ الذي فيه الطريقُ و الحقُ و الحياة . تهانينا القلبية للشاعر / للشاعرة هذا الإبداع ، إذ استطاعت الكلمات أن تضيء الطريق في هايكو خالد بلا شك.

تهانينا لجميع الشعراء و لنا جميعاً كل هذا الجمال الذي جاء مع هذه المسابقة الرائعة.
تحياتي و محبتي للجميع!